محمد العثمان

" ماجـــلان "

الـــــمـــزناد قـــــلـــب عـــلـــى

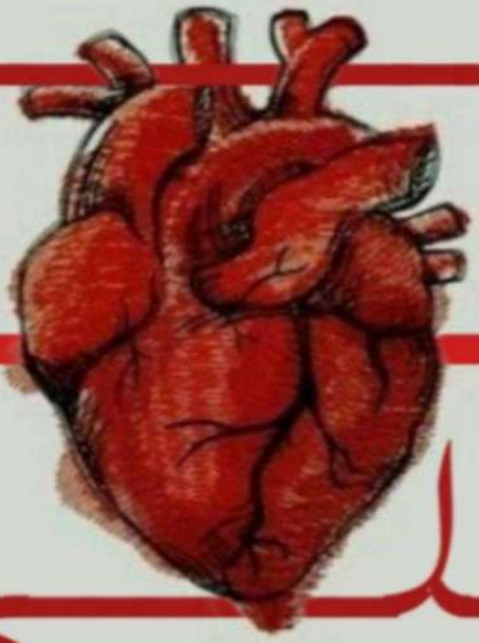

نفس مقصد

قـــلـــب عـلـى الـزنـــاد

تأليف

محمد العثمان

2025

الإهـــداء

إلى خالي العزيز ، عبير والدتي الميّاد ،ورفيق أيام والدي

هاشم عبود

أزهارنا ذبلت . .

والحب ارتطم بجدار المستحيل . .

مشاعرنا تهدجت . .

ولفتنا إرهاصات الفَرَق . .

ابتساماتنا دُفنت برحم الصناديق الموصدة . .

وقلوبنا تلتهبُ على الزناد الواري . . .

١- مراء بغير بعد

مع بسمة باردةٍ ، نهضتُ من سريري بالكاد مستقبلا الثلاثينات ببعض التململ . . .

مستدبرا ذكريات العقدين الأولين . . . بالتجاهل ربما . . أو التناسي . .

لا أدري لماذا تبدو أيام العمر هكذا . . باردة . . باهتة . . خابية البريق !

مع أنّ عالمنا أوسع ساحة لل " الأكشن و الإثارة" . .

ولكأنّ مقامي بهذا العالم وهما أتوهمه أو حسبا أحسبه !

خرجتُ إلى عملي بخطوات متثاقلة . . أجرُّ خلفي بعض من بقايا مآسي العشرينات

. . .

بوجه يبدو وكأنه ساحة معركة . . . اعتركت عليه تلك السنوات العاتية بلا أدنى

شفقة !

ملامح باهتة . . هالات سوداء . . عينان غائرتان . . . ورمق ابتسامة . . .

وعصابة هموم تفترس ملامحي . .

أما القلبُ . . فهو كتاب آخر . . ورواية أخرى . . . انزوت عنده الجروح وتفتقت بين أليافه الآلام . . وانغمر لا بسائله التاموري . . بل في علقم التجربة المريرة وانغمر عميقا في حنظل المعاناة المقيتة !

قد أكون تعلّمتُ الحكمة . . أو فلسفة الحياة . . . لكني بذلتُ تلقائها ما لا يُستخرج من كريم الناس ولا يُنتزع من لئيمها . .

لكن مع هذا . . تخبط شبابي شبح العبثية . .

شاب ولد في الثلاثين . . . هكذا أخبرتني أحلام عندما كنا نثرثر ذات يوم . . .

– هل هذا مديح أم توبيخ ؟

هزت كتفيها :

– كيفما تشاء

أحلام هي امرأةٌ ثورية . . امرأة تكافح القيود "الشرقسطية" كما تزعم !

- شرقسطية ؟ هل تشتميني يا أحلام ؟ أم أن هذه مفردة ميتة في لغة منسية !

- يعني "شرق أوسطية"

انفجرتُ ضاحكا :

- هل هذه من ابتكارك حضرة الفيلسوفة ؟

- لماذا تبدو وكأنك تسخر . . . ألم تعجبك ؟

- كلا . . تركيب سخيف ! .

قالت بإحباط :

- يا رجل . . هلّا شجعتني يوما وقلتَ لي . . مبدعة . . ذكية . . . هل تهميشي وتفتيت كياني ممتع بالنسبة إليك ؟

- هذا الموجود . . إن أعجبك أعجبك وإن لم يعجبك . . .

وهنا سكنت الأصوات . . . وبدا الأمر حاسما للغاية . .

استدركت أحلام بنبرة رجاء وخوف:

– وإن لم يعجبني فماذا ؟

تمتمتُ ببعض الحروف . . . ثم عطفتُ دفّة الحديث :

– ما رأيك بتناول بعض البرغر ؟

سكتت أحلام سكوتا عميقا ومضنيا . . تتفكر بملامح محبطة . . ووجه تلوّن بألوان متنوعة . .

– شكرا لا أريد .

ثم ارتحلتْ . . . كانت تسير ببطء وكأنّها تمنحني فرصة اللحاق بها والاعتذار . . . عن اللامبالاة التي التمستها مني . . . ولكن هل فعلتُ ؟

أبدا . . . . بل نهضتُ ومضيتُ في الجهة المعاكسة . . . متحدّيا . . .

تهتف أحلام أمامي يوميا بوجوب الثورة على هذه القيم المتهالكة المتآكلة . . . تلقي بثقة محاضرة في " المساواة بين الرجل والأنثى " وعن تحطيم تلك " الأغلال الوهمية " التي تكبّل معصما المرأة الشرق أوسطية .

ثم تلوب بأفكارها بين أنصارها ، وتبعثُ اعتقادها بشتى الوسائل . . بالكتب . . بالمجلات . . . بالداعيات الصارخة .

وبين جماهيرها بالساحات . . تهتفُ عاليًا بقلب ملتهب بالحماس: الحرية للمرأة !

حتى كان مقدمي . . .

عندهُ . . كل هذه الشجاعة والعنفوان . . تلاشت عند خاطري . .

وتكسرت كل تلك القيم التي تدعو إليها أحلام . . . . عند حدودي . .

ظهوري كان تجلّي نتيجة الفشل لأحلام . . . وتثبيت الإحباط في نفسها . .

لأن أحلام أثقل وأشهر دعاة حرية المرأة في أوروبا . . تغلُّ يديها بيديها بي . . وتمررُ لي المفتاح . .

تدعو لتحرير المرأة من سجنها . . . فإذا بها تسجنُ نفسها في ذاتي . . خلف قضبان مداي وضمن جدران أفقي !

أعلنت ولاءها الساحق لكياني المتين . . . واتباعها لسحري الميّاس . . وطاعتها لعنفواني الميّاد . . . كما تصفني . .

ليس من اللحظات الأولى . . لكن من المعارك الأولى !

لم يكن تعارفي بأحلام هادئا . . . بل كان يبدو وكأّنه نزاع أو عراك . .

لكن بقدر ما هو محتدم ومصطلم . . كان أيضا فكاهيا وكوميديّا . .

كان في مقر جريدة "كونتا " جنوب العاصمة بودابست حيثُ اقتحم صرح المقر جمرة مشتعلة غضبا وهي ترفعُ مجلة ممزقة ثم أضرمت بها النار وألقتها مد الأرض !

واصطرخت بجنون تردد صداه:

- أيها الجهلاء . . أيها الحمقى . . . هل تحسبون أنفسكم تعيشون بالقرون الوسطى ؟ ! . . ألا تختلسون النظر إلى ساعاتكم ومفكراتكم ؟

ثم استدارت :

- رفعنا بكم شكوى رسمية على مجلس الاتحاد بسبب هذه المقالات الغير مسؤولة !

ثم أشاحت بوجهها وهتفت :

- ارتقبوا مجيء الجحافل النسوية الغاضبة !

وهنا . . تقدم نحوها شابٌ شرقي مفعم بشبابه . . أسمر عابس الملامح . . دمث . . شديد الإحساس وحاد الطباع . . . سريع التأثر . . .وهبتَهُ أشجار النخيل طولها . . والصحراء مداها . . والبيئة إيمانها وقوانينها . .

رسمت ريشة الزمان على وجهه البأس . . ونمّت على يديه جبل عضلي أشمٍ قويمٍ !

والذي زجرها بصوته المزلزل قائلا :

– مهلا مهلا يا سيدة ! هل تمارسين جنونك في حرمنا ؟ ! . . هذه جريدة مرموقة وليست عيادة لمرضك النفسي . . فلتغادري فضلا !

تلبس أحلام وجلٌ أضمرتهُ خلف غضبها الجارف . . لربما بسبب الصوت الأجش الغليظ الذي نال من كبريائها وزلزل أمانها . . . أو لربما من الملامح العروبيّة المتطرفة التي برزت كسبع صلد أمامها .

– أيها المتعصب اللدود ، من أنت ؟ . . هل أنت من تكتب تلك المقالات الساذجة الرامية إلى تحييد المرأة واغتيال حقها الاجتماعي ؟ !

أجبتُ متحديّا وقد جعّدت جبهتي :

– هب أنّهُ أنا . . . ما أنت فاعلة ؟ !

أجابت مغتاظة :

– سترى !

ثم خرجت بعد أن ألقت وعيدها . . .

لم تلفظ الساعة كثيرا من الثوان الهادئة حتى تجمهرت أمام مقر جريدتنا جحافل نسوية ملتهبة تروم صبّ جام غضبها علينا !

تهتف . . . تصرخ . . تنادي . . . يكاد ضجيجها يزعزع استقرار الأرض تحتنا . . . وشعاراتها كالجندل يتهافت على البناء . . .

سارعت السكرتيرة للاتصال بالشرطة . . . اجتمعنا مع محرر الجريدة في البهو . . اهتدينا في نهاية المراء الذي دار بيننا أن أخرج إليهن وأدعوهن إلى مناظرة . . .

وبالفعل !

خرجتُ إليهن . . وزئرتُ كضيغمٍ ملتهب :

- اسمعن أيتها النسويات المارقات ! . . . لتختزن منكن امرأة تمثلكن . . ولنتناقش حول صحة المقالات التي ننشرها حولكن . . . فإذا بان كذب ادعائكن تقسمن

بالقرآن أو الإنجيل أو المال ألا تبرحن خارج المطبخ مليمترا واحدا . . . وإن بان كذب ادعائنا فإننا نقسم بما نؤمن به أن نغلق هذه الجريدة للأبد . . . موافقات ؟ !

عجّت الأصوات ، وارتفع الجدال بينهن على الإيجاب أو النهي . .

ضحكتُ ساخرا :

– هل تخفن من الهزيمة ؟ أم تعلمن في نفوسكن حقيقة ما ننشرهُ ؟

برزت من بينهن أحلام . . محمرة الوجه غضبا . . تكاد تقرعني دقات قلبها المتسارع . .

وعلى الفور . . . لفحني لهيب حرارتها . . .

صرخت بصوت قطعته البحة :

– موافقات ! . . وإن مناضلات الحزب النسوي مستعدات لممارساتك أنى وحيث شئت !

قلتُ مبتسما بخبث : على بركة الله !

في مدينة دبرتسن Debrecen بالتحديد تلك المدينة الهنغارية المتناهية الرقى ، الهادئة المستكينة لولا تلك النسويات العابثات اللاتي كن ينقنقن كالدجاج ملوثات المكان بقذارتهن الفكرية والجو بضجيجهن السخيف . .

في تلك المدينة . . دلفتُ الساحة متزعما وفد من جريدة "كونتا " بينما دلفن ممثلات الحزب النسوي بزعامة أحلام . . .

جلس وفدنا مقابلا لوفدهن . . . تقابلت وجوهنا والشرار يتطاير من أعيننا ولكأنّهُ ميدان حرب . . ولكأننا نتحضر للنزال !

بعدها بدقائق . . حضرت لجنة التحكيم وسمح للناس أن يلجوا زمرا زمرا و أفواجا أفوجا حتى تكاثرت حولنا المئات وربما الآلاف يشاهدون هذه المناظرة الشيقة . . بين جريدة كونتا التي تكافح وباء النسوية وبين مناضلات الحزب النسوي اليساري . .

وأمام تلك الحشود الغفيرة من الناس الحضور . .

جعل كل فريق يقسم رسميّا بأنه سيحلّ ويفكك حزبه إذا كسب الطرف الآخر المناظرة الفكريّة . .

عقبها . . توجهّت أصابع لجنة التحكيم إليّ تطلبُ مني افتتاح المناظرة . . .

بعد نفس عميق . . شرعتُ بالكلام بصوت جهوري متأدب ولبق:

– سيادة اللجنة الموقرين . . السادة الحضور الكرام . . قد انتحل أعضاء الحزب النسوي أننا ننسب إليه ما ليس له ، وأننا نلحق به أفعالا ونتائجا يرى أنهُ يتنصل منها ، وقد انتهك حرمة الجريدة الرسمية وفعل ما ليس من حقه فعله، فكان بذلك أشبه بالمغول أو القبائل الهمجية البادئة البائدة . . فهلّا تطلب من الممثلة لهذا الحزب التي تُلقب بـ "الشمس الوردية" أن تستعرض ما استهجنته منا لنتداوله فيما بيننا وبيننكم .

تنحنحت أحلام ثم افتتحت حديثها :

- أيها السادة المحترمون ، لقد تعرضن النساء منذ الأزل لمظالم شنيعة، ورزحن تحت استعباد مأساوي يندى له الجبين وتفيض لعظم خطبه الأحداق ، ظلم وجور جاوز الآفاق، فكانت مقيّدة في حريتها ، وهالكة في ذروة حياتها وعندما رجحت كفة العدالة أخيرا بعد توثب مضن، وأبصرت المرأة روح الحياة ، قفز أناس تنحدر عقولهم من القرون الوسطى وأجسادهم من هذا القرن، يريدون إعادة حال المرأة لما كانت عليه من أسى وسوداوية وآلام .

فإذا بالجماهير النسوية تهتف بصوت واحد :

- تحيا الشمس الوردية ! . . تحيا الفيمنستا miss Ahlam!

وراحت الجماهير النسوية تقفز وتزعق وتهتف وتصفر لأحلام حتى دوى ضجيجها في أصقاع الساحة ، وتعالت الصرخات المناصرة لأحلام عاليا حتى أبصرن النساء بصورة أحلام تشي جيفارا ربما أو ماو تسي تونغ

استطردت أحلام :

- تاريخيا ، كُن النساء جاريات ، بلا أي حقوق، لا تمتلك رأيا ولا أمرا حتى على جسدها . . تخدم الرجل طوال اليوم بكد وشقاء وعلاوة على هذا يذلّها أشد الإذلال ويحيق بها من ألوان الإهانة الدهماء ما طاب له مستلذا بما يصنع .

حول الحكم منبر الكلام لي ، فاعتدلت بجلستي ، واستجمعتُ أفكاري وقلت بعد نفس عميق:

- جيد

أشحتُ بناظري صوب القاضي:

- أيها السادة القضاة، هل تأذنون بجعل الحوار بيني وبين السيدة أحلام مباشرة ؟

التفت القاضي صوب أحلام:

- هل تقبلين دعوته ؟

أجابت بابتسامة واثقة:

- بالطبع حضرة القاضي.

حدجتُ في عيني أحلام حدج الضيغم المنقض:

- قلتِ أن البشر كانوا يجعلون من المرأة جارية بلا حقوق.. أليس هذا ملخص مداخلتك ؟

- نعم، هذا ما ذكرت.

- أيضا كانوا يجعلون من الرجال عبيدا ! ، ومن الأطفال خدما ! فالظلم عليك وعلى غيرك ، فنحن أيضا نستطيع الادعاء أن التاريخ كان يستعبدنا بلا أي حقوق . . .

فلا تجعلي الأمر حكرا على النساء فقط لتدلسي على الناس .

- انتظر . . . انتظر . . يا رجل . . هل تساوي الظلم الذي كانت تتعرض له الجارية من النساء بما كان يتعرض له العبد من الرجال ؟ !

قلت بانتفاضة بالغة :

- بل إن ظلم العبد كان أكثر فظاعة وقبحا من ظلم الجارية ! . . لم يكن يسمح له بالزواج دون إذن سيده ، أي محروم من حريته في أبسط حق اجتماعي لأي رجل، كانت الجارية على الأقل تنجب وترى أولادها من سيدها ، أما العبد فلا يسمح له بذلك إطلاقا .

شربتُ كوزا من الماء ثم استدركتُ:

- وهو مجبر على خوض غمار الحرب، فلربما قتل فيها ولم يعرف تجسيدا لكلمة الولد !

قد تجدين في التاريخ كثيرا أبناء جواري ومنهم زين العابدين علي بن الحسين بل حتى ابراهيم ابن النبي وكثيرا من الخلفاء العباسيين والأباطرة الرومان . . بينما لن تجد أولاد عبد إلا نادرا !

فعلى من الظلم الفعلي ؟ ! أعلى تلك المرأة المذلولة التي تنجب وترى أولادها في بيت سيدها . . أم على ذلك العبد المحروم من الولد الذي يسقط قتيلا في رحى الحرب فلا يجد من يبكي عليه أو يذكره أو يدفنه حتى لأنه عبد ! ! . . ويترك جثمانه في العراء لتنهشه السباع والطيور دون أن يستشعر دفء العائلة يوما . .

وبعد صمت طويل . . نطقت أحلام:

-هذا ليس مأخذا عليّ ، بالطبع سيحصل لكم هذا لأنكم رجال وهذه وظيفتكم الفطرية !

- جيد جدا جدا ، إذن تثبتين أن الرجل ليس كالمرأة ولكل منهما وظيفته الخاصة ؟ !

أجابت بتردد وقد جرفها تيار التفكير:

- بالطبع . .

قلتُ بثقة بالغة وحزم :

- إذن أنت تناقضين نفسك، كيف تنادين بالتساوي وأنت لا تؤمنين بالتساوي ؟ !

- يا سيد ، أنا أنادي بالمساوة في الحقوق بين المرأة والرجل . . . في الحقوق ! . .ركز

- أنا مركز . .هل أنكرت جريدتنا تساوي الحقوق ؟ ؟

- أنكرتم نعم ! ، أنتم تبررون خيانة الرجل لزوجته وتعظمون من جرم خيانة المرأة لزوجها .

- الخيانة ليست حقا لكي ننكره أو نثبته ، الخيانة جرم لهذا ولهذه . . .

انتفضت أحلام محمرة الوجه: لكنكم لا تقولون هذا !

- دعيني أتمم حديثي . . الرجل يتحمل إثما أقل وهذا ليس كلامي أو كلام جريدتي . . بل كلام الطب والبيولوجيا .

- كلام الطب ؟ ! هل الطب يتحدث أن الخيانة مباحة للرجل ؟ ! شه !

- أنا لا أقول مباحة، لكن الرجل لديه من التكوين الطبيعي ما يشفع له إذا اقترف هذا الجرم، أما المرأة فلا تملك هذا التكوين !

- أي تكوين هذا يا رجل ؟ هل تبتكر الآن من النظريات ما يحلو لك ؟

- ألم تأتِ هنا للنقاش ؟ ! إذن عليك الاستماع !

حدّقت فيّ أحلام بابتسامة ساخرة وقالت بتهكم:

- عذرا سيد آنشتاين، هلّا شرحت لي!

- حسنا، انظري! . . الإنسان -وفق نظرية دارون- تطور من سلالات حيوانية مترقية، لعلّ هذا يفسر التشابه العجيب ببعض السلوكيات الغريزية المشتركة بين الإنسان والحيوان، إذا نظرنا للسواد الأعظم من الحيوان نجد أن الذكر غالبا يعدد بينما تكتفي الأنثى بذكر واحد . . هذا يوجهنا أن ذكر الإنسان قد يميل بيولوجيا للتعدد .

أما التكوين الفيزيولوجي فإن الرجل لديه ارتفاع بالهرمونات الأندروجينية تسبب له شغفا فطريا بالزواج وترفع حدة حاجته للأنثى . . بينما الأمر ذاته غير متوفر عند المرأة.

حملقت أحلام في نساء حزبها ، وهتفت بنبرة ساخرة:

- Wow! هذا مذهل حقا . . أسمعتن يا نساء ؟ ! ، خيانة أزواجكن مبررة فيزيولوجيا وبيولوجيّا . . علينا أن نغير أهداف حزبنا من محاربة الرجال لمحاربة الفيزيولوجيا والبيولوجيا !

ضحكتُ ملء شدقي ، أجبتُ بنغمة سخرية :

– وعليكن الثورة أيضا على الفلسفة والمنطق والطب والخ . . . والخ . .

- انظر يا سيد ، سأحاول تصديقك ، دعنا نفترض أنك قلت كلاما صحيحا علميّا . .

وعلى الفور بترت حديثها :

- مهلا مهلا ! ، أنا لا أتكلم من إملاءاتي ، هناك كتب علميّة تحكم بيننا كمرجع غايتون هيل الفيزيولوجي وكتاب أصل الأنواع لريتشارد دارون البيولوجي وبإمكانك سؤال الأطباء المختصين والباحثين على أية حال .

- يا سيد صدقتك حسنا، ماذا دهاك؟! دعني أكمل....

وخبا احتدام الأجواء قليلا .. ثم رفعت الفيمنستا أحلام قلمها واستطردت:

– ماذا بشأن تجريم عمل المرأة؟ ألم تكتب نسخا كثيرة من مقالات تشنع عمل المرأة ؟

- يا سيدة أنا لا أشنع عمل المرأة، لكن المرأة هي من امتلكت رحما وتولت وظيفة الإنجاب فلزاما عليها امتلاك وظيفة التربية والتأديب.

- وأين الرجل من هذه المسؤولية؟ أجبْ!

- مسؤول أيضا، لكن هل الأم كالأب؟ .. الطفل يحتاج فطريّا لأمه من أيامه الأولى بينما لا يعرف أباه إلا بعد خمسة سنوات... الحب المتبادل بين الأم وطفلها هو سلوك فطري أرومي متأصل متجذر، أما حبه لأباه فهو مكتسب ووليد البيئة ورهن تطور الطفل الروحي والنفسي .. فأكرر سؤالي .. هل الأم كالأب؟!

- المرأة من حقها الاشتغال أيضا أيها المحترم، والعمل ، ومن حقها ألا تمتلك حق التربية كما أنتم .

- إذن يلزم من ذلك ألا تنجب، فالأم الغير قادرة على حمل مسؤولية طفل بسبب أنها مشغولة مثلا فعليها الاكتفاء بعملها ولا تنجب . . أما أن تلد ثم تذر طفلها بلا تربية ولا تأديب، فيجب عندئذ ألا نتفاجئ من وجود اللصوص أو متعاطي المخدرات أو القتلة أو المجرمين أو أو . .

- وما وظيفة المدرسة أو دور التربية ؟ لمَ بُنيت إذن ؟

- وظيفتها أنها تربي طفلا بعيدا عن دفء أمه وفيء والدته رفقة أتراب له من ذات علّته . . بمعنى أنها أشبه بدور الأيتام إن جاز التعبير .

- ولماذا ليس بعيدا عن دفء والده ؟ ! لماذا والدته تحديدا ؟

- معذرة سيدة أحلام، سأطلب من الجراحين حول العالم أن يزرعوا أرحاما ومبايضا للرجال كي نتعادل في المهمة التربوية !

- يا رجل، أنت غير طبيعي ! . . لماذا لماذا تأبى المساواة بين الجنسين ؟

- لأنهما غير متساويان أصلا، إليك هذه الباقة العلميّة :

الرجل في خلاياه صبغي xy بينما المرأة xx

الرجل لديه ماء أكثر وشحم أقل . . بينما المرأة ماء أقل وشحم أكثر . .

الرجل لديه هرمون تستوستيرون . . بينما المرأة أستروجين

الرجل خضابه الطبيعي مرتفع . . المرأة خضابها الطبيعي منخفض

هذا قاسي وجافي الطباع . . هذه حنونة ورقيقة الطباع . . .

هذا ضخم الكتلة . . هذه صغيرة الكتلة . . .

هذا يبلغ بسن أكبر . . هذه تبلغ بسن أصغر . .

هذا صوته خشن . . . هذه صوتها رقيق . .

هذا ليس لديه طمث . . . هذه لديها طمث

هذا لا ينجب . . هذه تنجب

هل اكمل لك القائمة ؟ !

ألا تخبريني عن أي مساواة تتحدثين ؟ ! أخبريني . . أليس تباين الوظيفة التكوينية يلزم منه بالضرورة تباين الوظيفة الكونيّة ؟ ! ألا تؤمنين بالمنطق والفلسفة ؟ ! لا أقول لك الدين . . فلا يوجد دين أصلا بهذا العالم يساويهما . . . لكن منطقيا أليس المادة المصنوعة من نحاس مثلا يلزم منه امتلاك وظيفة غير تلك التي مصنوعة من خشب ؟ !

هزت أحلام كتفيها ببساطة . .

فاستدركتُ :

- إذن أستطيع صنع باب من خشب لكن هل أستطيع صنع دبابة من خشب ؟ !

فالطالب للمساوة بين المرأة والرجل كطالب للمساواة بين النحاس والخشب .

- حسنا . . دعنا لا نسمها مساواة . . .جيد ؟ . . لنسمها عدل . .نريد العدل فقط .

- العدل أن تأخذي حقوقك كأنثى وتقومي بواجبك كأنثى . . وليس أن تسترجلي . .وتنعتين هذا بالعدل !

- قبلتُ فكرتك ، هل أستطيع طرح عليك سؤال خارج نطاق حوارنا ؟

- بإمكانك بالطبع .

- لماذا في بلادك العربية والإسلامية المرأة مكبّلة ، ممنوع عليها أن تبوح بحاجتها . . ممنوع عليها الحب .

- حوارنا عن المرأة هنا في أوروبا ، لكن سأجيبك . . عندنا في بلداننا العربية ، المرأة كالجوهرة أو الألماسة ، أي خدش يفقدها قيمتها ، والمجتمع الشرقي يعصم بقيوده الصارمة على المرأة ما تتعرض له المرأة الأوروبية هنا بسبب هشاشة الرقابة الاجتماعية عليها .

استطردتُ شارحا :

أنا أتفهم قسوة الفكرة، لكن انظري ودعينا نجري مقارنة بسيطة . .

ثم أشرتُ بسبابتي نحو فتاة من الجمهور كان يبدو عليها الترح والتعب :

- هل تأذني لي بطرح عليك بعض الأسئلة الصعبة قليلا .

انتصبت الفتاة وهزت رأسها مجيبة :

- نعم بإمكانك .

- متى فقدتِ عذريتك ؟

تلكئت الفتاة خفرا وخجلا ثم قالت بصعوبة:

- في سن الثانية عشرة !

حملقتُ في عيني أحلام مليا طالبا منها التركيز في إجابة الفتاة . .

- اعذريني على السؤال الحشري ، لكن هل استطيع أن أعرف من مَن ؟

- من صديق لي، مدمن للمخدرات وقد عداني بالإيدز أيضا . . ولقنني تعاطي المخدرات !

هززتُ كتفي معتبرا كلام الفتاة كافيا لدحض احتجاج أحلام على تقاليد مجتمعنا الشرقي المتينة أواصره الاجتماعية . . .

زئرتُ عاليا :

- هذا الحال ليس حال هذه الفتاة فقط . . أنتن يا من صفقتن وهتفتن لهذه السيدة . .

وصوبتُ سبابتي تلقاء أحلام وسلّطتُ عينيَ على جمهرة النساء ،واستطردتُ:

- أليست قصصكن متشابهة ؟ ألم تعشن الحالة عينها ؟ . . هكذا حالة لا تضرب مجتمعنا الشرقي. بأغلب الأحوال. بسبب تحصين قيوده .

لكمت أحلام الطاولة وصرخت:

– هل تدافع عن جهالة مجتمعك ؟

-لا يمكنك رد السؤال بسؤال، لكن رأيي هو أن مجتمعنا يبالغ قليلا في صون المرأة وحمايتها فدائما خير الأمور أوسطها ، لكنها تبقى على أية حال أفضل من الحرية المفرطة.

سكتت أحلام مليا . . وركنت الأجواء . . والقضاة لا يزالون يستمعون للحوار بشغف . . والنساء تشجع بنظراتها أحلام . . والرجال ينتظرون على مضض خسارة الحزب النسوي كي يشمتوا فيه ويشهروه بين الأوساط الأوروبية . .

أخذت أحلام نفسا عميقا ، ثم لملمت أفكارها وأرخت أعصابها و استجمعت قواها الداخلية وانتصبت على قدميها ثم تجمدت للحظات . . ولحظات . . ولحظات . . .

ثم نطقت بصوت مخمر بالفَرَق:

- معك حق ! . . . . معك حق ! . . . أيها السادة الأشراف . . أعلن عن انسحاب حزبي . .

صعقن النساء من قرار أحلام الصادم، والجريء . . وجعلن يفتشن في عينيها عن تفسير وفي تصرفها التالي عن تعليل وتأويل . .

تقدمت أحلام نحوي بخطوات خفيفة . . توقفت على بعد بضع سنتيمترات مني . .

ثم بسطت لي يدها طالبة مصافحتي . . فقبضتُ على كفها مبتسما بجذل . .

همستْ بصوتها الحريري كحفيف شجرة متبخترة:

- شكرا يا أستاذ . . !!!

- اسمي أيمن

- شكرا يا أستاذ أيمن . . أتمنى أن يكون بيننا الكثير من النقاش في المستقبل .

وفي مشهد غير متوقع . . وصادم ! . . انهالت الشتائم والمثالب والسباب والابتذال وابلا صيبا على رأس أحلام . .

وأمطرت عليها كؤوس القهوة الفارغة وأكياس الشيبس وقصاصات القرطاس ولفائف الطُرُوس . .

وجعلن نسويات الحزب يقذفنها بأشنع المخايل ، وأرذل النعوت ويصفنها بالجبانة المندسة والمتواطئة على حلّ الحزب النسوي وتفكيكه . . وراحت تطوف حولها الشبهات وترصدها الاتهامات . .

أنتِ عميلة ودخيلة . . . أنتِ امرأة جبانة . . أنت جارية من القرون الوسطى . .

أنت لست نسويّة . . أنت . . وأنت . . . وأنت . .

وانسلت أحلام بشق الأنفس من بين تلك البراكين النسوية الغاضبة . . . وانزلقت خارج الساحة معلنة استسلام الحزب النسوي . .

ومن العجب أنها خرجت حية ولم يقتلنها النسويات . . شرّ قتلة !

وجردت لجنة القضاة في مقاطعة دبرتسن قرارا رسميا بوجوب تفكيك الحزب النسوي

في هنغاريا خلال ثلاثين يوما من تاريخه والاحتياط ضمنا على ممتلكاته . .

جُنت رياح كانون القارسة بجنون باريس . . وأنا . . الأكثر جِنّةً أتهادى في أرصفتها ليلا . . تحت الأضواء الرومنتية . . أجرّ حقيبتي نحو المطار . . .

يلفُّ عنقي معطف فرو ويكنُّ جسدي سترة داكنة مخططة . . لا أعلم أنى هي وجهتي . . لكنني أعلم أنني مُتجه . . .

إلى أي بلد ستقلّني تلك الطائرة . . . وعلى أي أمصار الأرض ستحطُ . . لا أدري . .

إن كلّ ما يستدعيني شوق كامن . . شوق يستثير عنفواني . . شوق تدفع طاقته المصطلمة مفاصلي صوب المطار . .

هل هذا الشوق حرضه ياسمين دمشق ؟ أم نظمته حكايا بغداد ؟

ام استحدثته نسائم الفرات العليلة ؟ . . أم استدرته معالم مصر الناطقة ؟

كيف أهديك قلبي يا أحلام ؟ ! وهو ممرغ بتربة أرض قذفت ببدني سحيقا . .

كيف أهديك ما ليس ملاكهُ من سلطاني ؟ ! وما ليست أجزائهُ من كلياتي ؟ !

كيف أهديك ما استعجمت دلالاته قواميسي ؟ !

إنها الساعة الثانية عشرة ليلا . . تصطك أسناني من البرد . . . ترتجف فيّ كل عظمة . . أقف منتظرا إقلاع الطائرة في الريسبشن . . .

هممتُ بكوب قهوة ساخن . . ويالها القهوة قارعا لصقيع باريس . .

تحركتُ إلى البقال . . . متثلج الخطا . . . متجمد الملامح . . وفي خضم سيري !

نشقتُ عبيرا . . ميّزته . . . وتنسمّتُ عبقا لم يخفَ على خاطري . .

إنّهُ عبق فولتير وشذا الفارابي وريّا الكندي وأريج بطليموس . . إنها طيب الفلسفة الزكية تفوح من ميسم عقل أدركها وتبصرها . .

إنّها فلسفة الحبّ متكوّمة في ذات حيوان ناطق . . .

إنها أحلام . . تسبقني بطلب القهوة .

سألها البائع :

- كوبا واحدا يا آنسة ؟

اقتحم صوتي :

- اجعلهما اثنان يا سيد . . وعلى حسابي . .

استدار رأس أحلام متتبعا الصوت المتوغل:

- هل أنت الأستاذ أيمن أم نظير له ؟

- هل أنت فعلا كوابيس ؟ أم أحلام ؟

ضحكنا بجذل . . قالت :

- حسبتك شبحه !

جعّدت جبهتي مستنكرا : وهل أبدو لك بهيئة شبح ؟ !

زمت شفتاها ودمدمت :

- ممم . . اعتدتُ على شبحك .

على أنقاض كرسي خشبي قديم . . . همّشته السنين الطوال . . . وازدردتهُ وحدته في زاوية المطار . .

نجلس أنا وأحلام والأحاديث الدافئة تبثُّ حرارتها في الصقيع:

- ماذا تفعلين هنا في مطار شيراك ؟

- ما يفعله الناس عادة في المطار . . السفر . .

- إلى أين ؟

صمتت قليلا . . ثم أجابت بحيرة :

- إليك . . يا أيمن . .

- إلي أنا ؟ ! عجيب !

- أبحث عنك . .

- أوجدتيني الآن ؟

- كلّا . .

- كيف ستبحثين عني وأنا أمامك ؟

- سأعلم عندما أجدك . . . الآن أشعر أني لم أجدك بعد !

- ربما تكوني على حق . . ستجديني ذات يوم منصهرا في . . في . . في معاني كتبي . . وأمكثُ بين أسطر أوراقي !

ذرفت عينا أحلام دمعا : هل تأذن لي أن أعانقك حينها ؟

- بإمكانك طبعا . .

وبعد صمت طويل محدق . . اجتاحت تيارات الريح الباردة الفالقَ بيننا . . ينهشُ هسيسها صمتنا . . وينهش صداها سكوننا . .

همستُ لها :

- أحلام !

- قل يا مستعمر قلبي . .

- لماذا في تلك المناظرة انسحبتِ فجأة ؟ كنتُ أشعر أنك لا تزالين قادرة على خوض الجدال

تبسمت أحلام حتى كاد صوار شفتاها يعانق خدها :

- لأنك انتصرت .

- لكن النقاش لم ينته .

- ومن أنبأك أنني كنتُ أنتظرك لتهزمني ؟

- أليس هذا هو المنطق ؟ أن تناقشي حتى النهاية ؟ ! حتى تحتجي أو تقام عليك الحجة ؟

- هذا وفق مفهومكم الذكوري . . أما الأنثى فلا تنتظر النهاية ألبتة ! . . أنتم الذكور سطحيون . . بينما الإناث ميتافيزيقيات بفطرتهن . . قضية النساء الانغماس في الماورائيات . .

كرعتُ كوب القهوة دفعة واحدة وعلقتُ:

- أخبريني طيب . . .

- الأنثى تثور على الرجل كي يثور عليها يا أيمن . . الأنثى تحبُّ الرضوخ لسلطة رجل قوي شديد الأود يفرض برجولته الطاغية ذاته على قلبها وعقلها . . رجل يشعرها بضعفها ثم يحتويها . . رجل يجرحها ثم يداويها . . رجل يهملها ثم يغدقها باهتمامه وحنانه . . . رجل يفجّر ماهيتها ثم يلملم أشلائها . . بحاجة قوة تفتت كيانها ثم تجمع شتاتها . . . أتحسبُ أن هذا الحزب النسوي ثار كي يحطمكم ؟ بل ثار كي يستثير ما تبقى من رجولتكم ويستخرج عنفوانكم المتداعي المتهالك . . عبر إذلالكم . . وضرب صميم كرامتكم . . عسى أن تعودوا رجالا !

أأكشف عن مفاجئة لو أخبرتك أننا نحسد جواري القرون الوسطى ! . . ليس على حقها المسلوب بل على حياتها في ظلال فارس حيي وفناء بطل مقدام . .

حدّقت بتعجب مضن . . تفجرت عيناي وحلّق حاجباي عاليا في سماء جبتهي . .

- لكن النساء جثّمنك بالمساوئ، وأمطرنك بالقمامة، وغضبن عليك ؟

تبسمت أحلام :

- هذه مراسم احتفال يا أيمن . . وما رميهن بالقمامة إلا دليل سعادتهن البالغة بأن إحداهن أسعفها الحظ أخيرا ونالت رجل الأحلام ذلك . .

كما حدث لزوجة العزيز إذ غللها يوسف في ذاته، واستعبدها جبروت رجولته ولاهوت جماله . . ولما انصاعت له كأنثى اعتقلتها رجولة أحدهم . . قفزن نسويات مصر يرشقنها بالشتائم والنعوت القبيحة ويحطن من مقامها . . فقررت أن تعرض عليهن رجولته الباذخة وملامحه القاهرة . . ولما أن سبرتهن ضعفن جميعا وخضعن لسلطان يوسف . . .

كل واحدة منهن يا أيمن . . كانت تبغي لو تجلس قبالك وتماريك . . كلهن يرجون لو يجربن الخضوع لسلطتك المتعجرفة تلك والخنوع لرجولتك الدهماء !

وجدتُ فيك ضالتي يا أيمن . . طنطنت بك أفكاري وثارت لك جماحي . . فجعلتُ أرصدُ استفحالك وتبجحك على مضض . . . كأنّما بكلماتك تنبش غور نفسي وتتوغل باندفاع في منتهى أعماقي . . . يجرني رهاب الخشونة في صوتك إلى الإذعان مكرهة . . . . ولم تجدي الاستماتةُ بالدفاع نفعا في إيقاف اجتياحك المجنون فيّ . . أنت لم تذرني أتكلم . . خطفت مني جانب الحديث كله . . . وعاجلتني بالاستنباط والاستدلال . . فاستدررتَ بهذا ضعفي . . كنت أفقه مني وأفهم . . وأعلم وأقدم . . كارزميتك غللت لساني . . وعبوسك قيدني بالتبعية لك . . .

وحديثك أهبطني من مساواتك إلى الدون منك . . .

تحقق ما أشتهيه كأنثى . . . فانسحبت . . وسلّمت النقاش لك . .

\

فغر فمي اندهاشا . . واندلقت شفتي السفلى ذهولا . . عبّرتُ:

- يبدو أن أفلاطون وأرسطوطاليس وسقراط كانوا محقين بوصفكن . .

- وماذا تقول ثلة المجانين هذه ؟

- أفترضُ من نعتك لهم بالمجانين أنك على دراية بما يقولون . .

- هل تؤمن بقولهم يا أيمن ؟ . . طمئني !

- إيمان استفزازي فقط . . لا عقدي.

وضحكنا بصخب . . وهتفت الطائرة منادية . .

وامتطينا ركبها . . وأقلعت بنا عاليا إلى ديار الملائكة الأزرق . .

وفي قعر المُزن الملحاء . . ونحن نطير في جوف السحاب وكل الخليقة دوننا . . .

قبضتُ على كفك الدافئ . . وبحتُ لك بما يعتلج في فؤادي:

- أحبك يا أحلام !

رشتني بلمعان عينيها ، وأغرقتني بندى أنفاسها ، وقالت:

- وأنا أحبك يا أيمن !

وهبطت الطائرة . . وكان في استقبالها . . حفل زفافنا .

٢- لـحـظـة بـوح

دق دق دق . . .

تقرع الأشجان باب منزلي . . . والكآبة تتسرّب من الجدران . . .

هذا العالم يُبجّل السعادة . . . لكنه لا يُعبّد إلا درب الأسى . . .

هذا العالم يجاوز سبيل الألم إلى سبيلٍ لألم . . . ويستدبر الدم ليستقبل الدم . . .

كيف سأصدق أن هذا العالم البربري يُحبّ ؟ ! كيف أطمئن إلى المشاعر الجياشة التي تتسلل خلسة إلى قلبي بين الحين والآخر ؟ !

لا أطمحُ أن أكون ذئبًا . . . لكني أدفع الذئاب . . .

تلك الجدران الشاهقة التي تسوّر نفسي . . . لم أشيدها تمجيدًا للعزلة . . . لكن شدتها حرزٌ لتلك النفس المرهفة الحس . . .

هوسي يكمن في الدفاع عن مداي . . . الدفاع عن ذاتي ومنظومتي بعنفوانٍ متسامٍ . . . ضد أعداء الحب . . .

الحب؟! . . . الحب؟!

ما هو تعريف الحب؟! لطالما راود دوامة تفكيري هذا السؤال! . .

ماهيّةٌ لا أعرف كيفيتها . . . طاقة تثور في داخلي أجهل ملامحها . . .

تعاريف عدة صغتها . . . نواة الشعور . . . حسٌّ الأحاسيس . . . روح الدنيا القدس . . .

لكن أدرك أن جميع تلك التعاريف التي ابتكرتها ناقصة . . . مجتزأة . . . وغير دقيقة . . .

لا أعلم ما هو الحب بالتحديد . . . لا أستطيع تصوّر مداه . . . لكني أعي كيف أحب . . . وأعي كيف أكون وفيًّا لذلك الحب الذي أجهل ماهيته . . .

البعض ينتقد نظريتي في الحب ويعلّها بالإبهام واللا تعبيرية . . . والبعض وافقني أن الحب أوسع من أن تحدّهُ الكلمات وتسجنه الحروف !

وهل الحب وُلِد حبرًا في أسطر القواميس أم شعورًا في نواة القلوب ؟ !

الحب يتجاوز حدود المنطق . . . ويحطم أغلال الفكرة . . .

العقل يؤمن بالمنطق . . . والمنطق يؤمن بالفكرة . . . والحب ليس، بل لم يكن يومًا ما فكرة . . .

متى يدرك هؤلاء البشر أن الحب ليس مفهومًا أو مصطلحًا ؟ ! . .

متى يكفون عن طلب تعريفٍ له أو محاولة تصور أبعاده ؟ !

ألا يحرّرون حبهم من المفاهيم والمعتقدات . . . ويسقطون عنه المعايير

والمحددات . . . ألا جعلوا قلبهم، وفقط قلبهم، هو القائد الوحيد لفُلك الحب

المتدفّق ؟ !

هذا ما صنعتهُ دواخلي . . . حرّرت حبي مما يكبل ماهيته . . . حطّمت أغلال اللغة

ونفضت قيود المنطق من حوله . . .

وذرأتهُ يبحر بي حرًّا طليقًا حاملًا إياي . . . ربما واثقًا به . . . وربما مستسلمًا

له . . .

حتى ألقاني بجانب قلبٍ يخفق فوق أوتار الكمان . . .

يلدُ الخفقات ثم يوزّعها بين النوتات ليمنحها حياةً من حياته . . . ومهجةً من

مهجته . . .

عند حدود فتاةٍ تبوح بحريقها للناي . . . ثم تبكي مقلتها والناي . . .

لاحظتُ تعابيرها التي تتراقص مع الموسيقا . . . وتتهدّج مع الألحان الشجية . . .

لاحظتُ سناها المنبعث مع الإيقاع، ليرقد في حنايا الأنغام ويجوب في كورالها . . .

رأيتها وأنا ألجُ المنتزه المجاور أثناء استراحة الاجتماع . . .

جلستُ على كرسيٍّ بعيدٍ عرّته الرياح وحتّته الأمطار . . . التهمتني عاصفة التفكير، وكادت تلفظني بعيدًا، حتى التقطتني سلسلة الألحان تلك بإعجوبة !

واستدرجتني برقة وحنان . . . من كرسيي إلى كرسيها . . .

— معذرة يا صاحبة الناي، هل تأذنين لي بالجلوس ؟

حملقت فيّ . . . لم تشأ أن تبتر معزوفتها، فاكتفت بهزّ هامتها بالإيجاب، رفقة بسمة مصطنعة .

انبسطتُ شاغلاً المساحة جوارها . . . أبحرتُ معها في أمواج الموسيقى الهائجة بلا استئذان . . .

أجد بعض ذكرياتي التائهة في هذا البحر، وبعض أحبابي المفقودين . . . يطوفون عليه . . .

تهدّل مدمعي ومدمعها . . . تهدّج فؤادي وفؤادها . . .

أخذت الألحان تُشيّع أدمعها، وتلثم خدها مواسيةً إياها . . .

أما أنا، فلم تكن لتشيّع دمعي الألحان، فانزلق وانزلق بحرارةٍ لاذعة . . . حتى خضلّت لحيتي وابتلّ قميصي . . .

وفجأةً . . . سكنت الأجواء، وركن الموج العنيف . . .

أدارت الفتاة طرفها نحوي بخجل معتذر، وهمست برفق:

– أنا آسفة حقًا !

أجبتُ وأنا أجفف مجرى دموعي:

– لا عليكِ. . . كنتُ سأخوض هذا البحر يومًا ما .

طفقتُ أمسح على نايها:

– الناي يبكي ويُبكي كل من حوله. . .

ثم استدركتْ بعد أن تفحّصتني:

– لا تعكس هيئتك اللائقة ما تضمره دواخلك من الأسى .

تبرّمتُ:

– وكيف تبدو لكِ هيئتي ؟

تفحصتني بعينين نهمتين:

– يعني. . . قميص أبيض فاخر، ومعطف أسود باذخ، وكرافتة متدلية، وبنطال خام، وحذاء يشاطر النجوم لمعانها، وحقيبة منتفخة، وساعة تلفّ

معصمك، والتي تبدو من الذهب الخالص، وخصلات شعرٍ مصففة بدقة كأنما اجتمع عليه مصففا شعر . . . بشرتك، والتي يبدو أنك سخّرتَ إنساناً خاصًا ليعتني بها . . . تبدو كهيئة وزير، إن لم تكن كذلك فعلاً !

أجبتُ بصوت باسم:

– اقتربتِ كثيرًا .

جعّدت جبهتها وتنكرت:

– اقتربتُ ؟ ! إذن، بالفعل لستَ مواطنًا عاديًا ؟

تبسمتُ بثقة:

– بل أقلّ من عادي .

ضربت فخذها :

– يا رجل ! . . أضعتني . . . من أنت ؟

قرعت صدري معرفاً :

– أنا قاسم، محرر جريدة "سبيد ليتر" هنا في وارسو .

تهلل وجهها ، واعتدلت بجلستها ، وابتسمت بسمة عريضة:

– أهلاً وسهلاً ، سيادة الأديب قاسم .

ومدت كفها للمصافحة، فالتقطتها .

استدركتُ:

– وحضرتك ؟

– كاميليا . . . موسيقية في فرقة "جونز بيتز" .

– تشرفنا يا آنسة كاميليا .

– لي الشرف يا أستاذ قاسم . . . أنا من قارئات مقالاتك الأدبية في الأعداد التي تصدر كل ثلاثاء .

– فعلًا ؟ . . . وما رأيك ؟

تفكرت قليلًا وأغمضت عينًا وفتحت الأخرى، وأجابت بتردد :

– أتفق معك في البعض . . . وأخالفك الرأي في البعض الآخر . . .

طالعتُ ساعتي:

– سأناقشك فيما بعد بشأنها . . . أما الآن، فيتوجب عليّ الرحيل، لأن استراحة الاجتماع انتهت .

ونهضتُ، ونهضت كاميليا أدبًا . سألتها السؤال الأخير:

– هل أنتِ بولندية يا آنسة كاميليا ؟

– كلا، يا أستاذ . . . أنا من بلاد الأرز . . . لبنان . وأنت ؟

– هل يوحي لك اسمي "قاسم" أني بولندي ؟

– ربما لا .

– إذن، خمّني، وعندما نلتقي مجددًا سأسمع تخمينك .

وغادرتُ حاملًا حقيبتي دون أن أفصح لها عن جنسيتي، لكن تركتُ لها رأس خيط.

فهذا التملّق النزق لا يحترفه إلا رجال شعب واحد فقط...

لم يكن لقائي الأول بكاميليا كلاسيكيًا... كان لقاءً مصبوغًا بالدموع والألحان الكئيبة... لقاءً ناحت فيه آلات الموسيقى... لقاءً فاتحته دمعٌ وخاتمته تملق!

هل سيكون لقاؤنا الثاني أفضل؟... تفكرتُ حينها مليًا، وتساءلتُ...

نظّمت الصدفة لقائنا الثاني...

عندما ولجتُ السفارة السورية بمدينة وارسو ذات يوم، بإيفاد من جريدتي لعقد جلسة حوارية مع سيادة السفير السوري...

وجدتكِ تقبضين على جوازك وتجرّين خلفك حقائب ضخمة ثقيلة...

تدخلت مما زحًا:

— هذه الحقائب تحتاج إلى بغلٍ ليجرّها، وليس إلى فراشة مثلك!

التفتت كاميليا نحوي فزعة، وقالت بغضب:

– عفوًا يا سيد ؟ !

ثم ميّزتني وذكرتني، فتداركت نفسها بابتسامة عاجلة:

– أهلًا أستاذ قاسم . . . معذرة، لم أميّز صوتك .

– لا عليكِ، كيف حالك ؟

– بخير، وأنت ؟

– جيد .

أعدتُ التحديق في الحقائب:

– إلى أين ؟

– Nowhere . . . أشحن أغراضًا لعائلتي فقط .

كان وجه كاميليا باهتًا، وصوتها مكسورًا بالكاد يُبين . . . متثاقلة الخطى . . .

شعرتُ أن كاميليا ليست على ما يُرام . . .

سألتها بصوت مشفق:

– معذرة كاميليا . . . هل أنتِ بخير ؟

انهار حجاب الدمع . . . اغرورقت مقلتاها ، واحمرّ خدها الرقراق . . .

استجمعت قواها ، ونبست بالكاد بصوت معتَلِج:

– والد . . . تي . . . يا . . . مسترقاسم . . . my mother

– والدتك ؟ ما بها ؟

– والدتي في العناية المشددة في دمشق .

صعقتُ، واتسعت عيناي:

– حقًا ؟ ! وكيف هذا ؟ ! وأين ؟ !

تفرك عينيها الفائضتين:

– بحادث مروري في بيروت . . .

– أوه . . . حمدًا لله على سلامتها .

– لا أعلم إن كانت ستسلم أم لا . . .

– I'm sorry to hear that.

– بحلول الغد ربما سأسافر إلى سوريا ، لكن عليّ اليوم شحن هذه الأغراض لهم .

– هل أساعدك بحملها ؟

أجابت وهي تلملم دموعها المتناثرة:

– سأكون ممتنة لذلك .

رفعتُ هذه الأحمال على كتفي . . . كانت ثقيلة جدًا تكاد تسحقني:

– ما كل هذه الأغراض يا كاميليا ؟

– متاع لهم . . . لا يعرفون أحدًا في دمشق، لذلك أنا مضطرة لأرسل لهم متاعهم من هنا .

أنزلتُ الأثقال من كتفي، وسألتها بلهجة واثقة:

– لا يعرفون أحدًا في دمشق؟

رفعت حاجبيها:

– كلا.

ابتسمتُ بثقة دهماء:

– ما رأيكِ الآن أنهم يعرفون كل أهل دمشق؟

حدّقت كاميليا فيّ عجبًا، وكأنها لم تفهم ما أقول...

وأخرجتُ هاتفي من جيبي، وطلبتُ مكالمة إلى دمشق، تحديدًا مع والدتي، وأخبرتها بالقصة... وعلى الفور تجهزت عائلتي لتذهب إليهم حاملةً لهم متاعًا وعونًا...

أغلقتُ المكالمة...

بحلقت كاميليا فيّ، وقالت بصوتٍ مخمّر بالمكر والدهاء:

– يبدو أنك فضحتَ جنسيتك.

– جنسيتي ؟ ! أهذا ما يهمك الآن ؟ وهل كنتُ أخبئها أصلًا ؟

– هكذا بدا في المرة الماضية. . . خمّنت أنك تعتبر الجنسية سرًا شخصيًا .

ضحكتُ بصخب:

– الوطن تفاهة. . . وليس سرًا .

– أوافقك الرأي.

تابعت كاميليا جادة:

– إذن تعترف أنك كنت تتملّق وتراوغ لا أكثر ؟

قلتُ وقد تقاذف وجهي الصبر والغضب:

– أو كنتُ ألاطف، بمعنى أكثر احترامًا !

أجابت كاميليا بابتسامة مصطنعة:

– أشكرك على صنيعك معي. . .

ثم استدبرتني وغادرت دون تحية.

في يومٍ ممِلٍّ باهت، لا مقابلات صحفية، ولا تقديم نشرات إخبارية، ولا أحداث تستحق التغطية... ماذا أصنع وأفعل في بلدٍ روتينيٍّ بيروقراطيٍّ كبولندا ؟ !

تفكّرت... قراءة كتاب ؟ ممل... مشاهدة فيلم ؟ ممل... نزهة ؟ ممل...

لم يكن أمامي ما أستلذّ به حينها إلا إلقاء نفسي في الفراش الناعم، ثم أسدل على بدني الغطاء الصوفيّ الحاني، وأستسلم له ليأسرني بعالمه الدافئ، ويحيك لي أحلاماً يقصّها على ذهني ويسلّي بها نومي... رؤيا مشعّة يلاطف بها خيالي المستغرق في الرقاد .

وفي خضمّ هذه الرحلة الهادئة، زلزل عالمي صوت فَضٍّ، وبتر سلسلة أحداث أحلامي زعقٌ صاخب... كان هاتفي .

أجبتُ وأنا أتثاءب:

– ?Hello

– بونجور مسيو !

قطعتُ المكالمة قاصداً، وأغلقت الهاتف... وعدتُ للنوم .

ليعود الهاتف يزعق مجدّداً...

رددتُ:

– Hello?

– Hi مستر!

قطعت المكالمة مجدداً وأغلقت الهاتف...

ليعود الهاتف يزعق بجنون... أجبتُ بانتفاض وقد نفد صبري:

– Hello؟!!

– مرحباً قاسم.

– من؟

– تزعم أنك لم تعرفني؟

– عرفتك...

– لماذا كنتَ تُغلق الخط إذن؟

– حتى تلقي التحية بلا تهكُّم.

– وهل إلقائي التحية بالفرنسية أو الإنجليزية تهكُّم؟ ألم تقل أنت "Hello"؟

– أنا قلت "Hello" وليس "Hi".

– أنت آخر من يحق له الحديث عن التهكم! . . هل أذكّرك؟

– اختصري، بيبي . . . what do you want?

اغتمّ صوت كاميليا وقالت باستياء:

– Sorry! Nothing.

ثم أغلقت هي المكالمة، وانقطع الاتصال!

تبرّمتُ وتأففتُ، وبعد سورة ندم عاودتُ الاتصال وحيّيت معتذراً:

– بونجور مدام كامي.

ضحكت كاميليا وجلجلت:

– أنا لا أحب من يتهكّم بالتحية.

وأغلقت كاميليا الخط بلا مبالاة. . .

اغتظتُ، وانتابني شعور الهزيمة، وتلاشى شعور النعاس من بين عيني، وتصاعدت ألسنة الثأر في نفسي، وامتشقتُ تعابيري سلاحها . . .

وبعد نصف ساعة كاملة، أعادت كاميليا الاتصال بي:

– انظر . . . دعنا نبدأ المكالمة بلا تحية .

– من الأفضل لكِ أن يحدث هذا .

أغرقت صوتها ببراءة متناهية:

– كيف هو اليوم، my baby ؟

– بخير قبل اتصالك . . . وأنتِ ؟

– بخير بعد اتصالي بك . . .

– هل تحاولين إقناعي أني سيئ ؟

– كلا . . . إلا إذا كنتَ تعتبر نفسك سيئاً .

– لماذا اتصلتِ ؟

– هل تناولتَ العشاء ؟

– كلا .

– Fantastic ! إذن لتتناوله اليوم معنا .

– معنا ؟ ! ومن أنتم ؟

– أصدقائي يريدون التعرف عليك . . .

– أصدقاؤك ؟ ! ومن هؤلاء أصدقاؤك ؟ !

– ستراهم وتعرفهم . . .

– هل هم مثلكِ ؟

– كلا . . . اطمئن .

– إذاً ليسوا مثلك . . . سآتي .

قهقهت بصخب ثم هتفت:

– تعال إلى مدينة لودز واتصل بي عندما تحضر .

استقللتُ سيارتي وسافرتُ في جنح الليل نحو مدينة لودز . كانت كاميليا تقف أمام الريستورانت بانتظاري،

مرتدية فستاناً أرجوانياً برّاقاً كبريق بشرتها الناصعة، يتدلّى شعرها عليه، وتنساب خصلاته الذهبية كأنها أغصان الشمس . . . ووشاحاً صغيراً يكمّم جيدها الرقيق الناعم، يختبئ تحته مصاغها المتلألئ، وحذاء كعبٍ طويل حلق بقامتها عالياً . . . تحمل بيدها جزداناً بلون الفستان . . . يطوف حول ملاكها عبير عطرها الميّاد الذي يغتال وعي كلّ من نشقه .

كانت صارخة الجمال، فاتنة المعالم، باذخة الأناقة . . .

اقتحمتُ مداعباً :

– ها أنا ذا يا أنجلينا جولي . . . بطني تزقزق جوعاً .

ارتعشت رعباً ثم ركنت وتبسمت هازئة:

– ألقِ التحية أولاً على الأقل . . . أخفتني !

سخرتُ:

– ألم نتفق أنه لا تحيات بيننا ؟ ! لأن التحية تفتعل مشكلة بيني وبينك .

قاطعتني بإيقاع متسارع:

– قف . . . قف . . . قف

ثم أرسلت يديها إلى ربطة عنقي وقوّمت اعوجاجها ، ثم عدّلت معطفي:

– يبدو أن الجوع أنساك أن ترتّب نفسك .

ثم تأبطت ذراعي، وشابكت أصابعها بأصابعي، وأخذنا نسير في فناء الريستورانت . . .

لفت نظراتي نظراتها . . . وعانق قلبي قلبها . . . أرسلت هامتها لتزحف على صدري، قارعةً إياه، طالبةً ما يحويه من المشاعر المترعرعة . . .

رفعت وجهها ، ليلاقي وجهي قباله، يرقص الإعجاب عليه . . .

وتختال تعابيرها في عينيّ . . .

رفّت أهدابها بغزل... وتبسمت بذوبان تام... واضمحلت قواها بين ذراعيّ...

وتلاشت روحها في بوتقة الحب... وتغلغل جبينها التائه في حنايا كتفي...

همست برفق:

– تليقُ بك هذه الرومانسية يا قاسم...

رمقتها بعينين منصهرتين:

– كامي ؟!

– ?What

– I love you.

حدقت لثوانٍ، ثم تقدّمت لتطبع على خدّي قبلة، ودنت من حدود أذني لتترك بها

همسة بوح:

– Me too, baby!

ألفيتُ نفسي ملقى بين ذراعيها، تناهيتُ في ظلال حضنها، وشددتُ الوثاق،

وانسحبت أناملي، وارتفعت لتنساب بين أخاديد شعرها وتسيل في حقوله الشذّية...

تصاعدت خفقات قلبينا، وحجب بخار أنفاسنا العالم عنّا، وأشعل بوح العشق الذي نعترف به النسيم حولنا .

همست كامي لاهجةً:

– أخبرني بما تشعر تجاهي...

تكلمت عيناي الذابلتان بلهث متسارع:

– العشق يا كامي... طوّقني عشقك، وسجنتني كلما تكفيك... أغدقني قلبك بالحب، وغمرتني أنتِ بالحنان...

صمتت كامي... وأطالت الصمت... وأطرقت النظر...

ثم، وبشكل مفاجئ، اندفعت عني وتقهقرت للوراء، وحررت بدنها من بين ذراعي، وتراجعت أشباراً إلى الخلف...

لم أفهم ما حدث، ولم أفقهه... طاردتها نظراتي بحثاً عن تأويل...

قالت وهي تشهق:

– يكفي، قاسم، أرجوك...

– ما الأمر يا كامي؟

– يكفي، أرجوك... بليـــز...

وقبل أن أتحدث... استبقتني:

– هيا إلى الداخل... أصدقائي ينتظرون.

واعتقلت سبابتي وجذبتني إلى الداخل هرولةً...

كانوا جلوساً على الطاولة المربعة، المطرزة بالأحجار الكريمة ذات القوائم الأربعة،

يثرثرون بلجاجة عارمة... ويتسامرون ويتمارون بحضور الويسكي والفودكا...

قفزت كامي بحيوية:

– Hi, guys !

قدمتني لهم:

– هذا صديقي قاسم... صحفي ومذيع أخبار.

تناغم الحضور:

– تشرفنا...

وانطلقتُ أُصافح وأتعرّف:

– أنا ريتشارد، موسيقي ومؤرخ.

– أنا أوزان، محاسب في شركة.

– أنا فاطمة، مهندسة طيران وروائية.

– أنا ندى، طالبة صيدلة.

أشاروا عليّ بالجلوس بترحيب حار:

– تفضل، سيد قاسم... يا أهلاً وسهلاً... تشرفنا...

وجلستُ، وإلى يميني كامي، ويساري ندى، وقبالتي الثلاثي...

سألتهم ببسمة خافتة:

– From where?

تدخلت كامي، وأطلقت كفّها مشيرة:

– ريتشارد من بريطانيا، أوزان من البرتغال لكن أصوله تركية على ما أعتقد، فاطمة من البحرين، ندى من سوريا، و.. و.. أنا كامي من لبنان إذا كنتَ نسيت.. ههه

– Welcome!

ثم ربّتت كامي على كتفي وهتفت:

– و best friend هنا من سوريا...

انتبهت فاطمة إلى الحمرة التي صبغت وجه كامي، واستشعرت ذوبانها ولهيبها الذي لسع فاطمة، فغمزت ندى ونغّمت نبرتها:

- بيست فريند ولا شي ثاني يا حبيبة الماما ؟ !

زعقت ندى بثقة مستفزة، وأمالت عينيها بمكر:

- يعني بتقصدي العصفورة عشقت من دون ما تخبرنا ؟

تابع ريتشارد:

- هاه . . . إذن هذا سبب غيابك الطويل عنا . . . صيدك ثمين هذه المرة ! أحييك !

اضطربت عينا كامي، وتلفّتت يمنة ويسرة تحاول درء الاتهامات التي داهمتها من جهاتها الأربع.

قالت مجابهة:

- إنه صديقي . . . وبس ! وبس !

ولم تلبث حتى هبطت قبلة هبوطا حادا على خدّها بسرعة البرق . . . كانت مني، واستدركتُ:

- إنها حبيبتي . . . أحبها . . . وتحبني .

ضجّ الجميع بالضحك، ولجوا في التصفيق والتمايل .

وفاض وجه كامي حمرةً وخجلاً . . . وحارت بكلامها ، وأخذت تتلعثم، وتمنّت لو تبتلعها الأرض .

جعلت فاطمة تموّج كفّيها وتضحك بخبث:

- هاه . . . قول هيك من الأول ! أثَرَ الأخ "بوي فريند" وليس "بيست فريند" .

ونهضت عن كرسيها وتقدّمت تدفع كتف ندى:

- قومي يا بنت الحلال. . . دعيني أجلس جانب الأخ قاسم لأبشّره بما سيرى!

أطبقت ندى أسنانها هامسة بتحذير:

- عيب عليكِ، فاطمة! . . لسا مرتبطين جديد!

زعق ريتشارد مشيرًا إلى فاطمة:

- هذه "بسوس العرب" ها! . . . صاحبة فتنة. . . حذارِ تصدّقها!

احتلت تعاليم الاستغراب وجهي:

- ومن أين تعرف البسوس؟

- أنا مؤرّخ. . . والتاريخ هو اختصاصي.

نهضت ندى طوعًا ، وانبسطت فاطمة بجانبي .

وجعلت تعطف سبابتها على كفّها مرارًا تناديني لأدنو . . .

اقترب ثغرها من أذني وهمس بصوت خافت لم يسمعه غيري:

- احرص على هذه الفتاة . . . إنها رقيقة لأبعد الحدود . . .

والجميع يبحلقون ويحملقون ويركّزون . . .

وأخذت تعابير الخشية بالانتشار شيئًا فشيئًا على وجه كامي . . . وتصاعدت نبضات قلبها قلقًا . . .

هذا وأنا أتفحّصها بعينَيّ لأراقب ردّ فعلها . . .

لم أركّز حقيقةً بما تثرثر به فاطمة، بقدر تركيزي على خوف كاميليا وخشيتها . . .

هل تراه تضمر شيئًا عني ؟ أو تخفي حادثةً ما ؟ أو سرًا ؟

وبزغت الأسئلة قافزةً في عقلي . . .

وشوشتُ لفاطمة مستهجنًا :

- لماذا تبدو كامي متوترة للغاية ؟

أسرّت فاطمة بأذني:

- هي مفرطة العواطف دائمًا . . . هشّة الإحساس . . . إن لم يوجد سبب فعلي يستدعي التوتر، تقوم تلقائيًا بابتكار سبب .

استنجدت كامي:

- فاطمة ! . . ماذا تقولين لقاسم ؟ . . شاركينا جميعًا .

أخذت فاطمة بالتنكّر والتمثيل، فزمت شفتيها ورفعت حاجبيها تكبّرًا، ونغّمت كفحيح أفعى:

- لماذا جميعنا ، حبيبتي ؟ هناك ضحية واحدة فقط من الموجودين .

- لماذا تسرّين له الأمر ؟ قولي أمامي على الأقل . . .

تدخلت ندى لإنقاذ الموقف:

- لنغيّر الموضوع، بليز . . . عندي فكرة جديدة للنقاش .

قطعت كامي طريق ندى:

- أنتِ دعكِ على جنب . . . أريد أن أعلم ما توشوشين لحبيبي . . .

أدرك ريتشارد أن الأمور بدأت تخرج عن السيطرة، فهاجم صارخًا :

- فاطمة، أنتِ المعتدية ! . . ألم ننهك عن ذلك ؟

أدركت فاطمة أن الأمر بدأ يتصاعد ويتفاقم مبتعدًا عن حدود الدعابة والمزاح، فآثرت الانسحاب من جانبي وتبادلت المقاعد مع ندى .

لكن هذا لم يكن كافيًا بالنسبة لكاميليا ، التي أصرت أن تعلم ماذا قالت فاطمة عنها .

كانت فاطمة تحجز ضحكها بصعوبة وتحاول جهدها إتقان الدور التمثيلي لاستفزاز كاميليا لأقصى بعد .

لكني لم أطمئن إطلاقًا لقلق كامي . . . ولم تتوقف الأسئلة عن القفز في رأسي . . .

تفجّرت فاطمة ضحكًا، وانهار تماسكها، وهتفت:

- أخبرها ما قلته لك يا قاسم!

لم ينجح اعتراف فاطمة بطرافة ودعابة الأمر في حرف المسار.

عيني مسلّطة على عيني كاميليا، قلت متلكئًا:

- ماذا يا كامي؟

همست لي كامي:

- هل نخرج قليلًا؟

ونهضنا لنخرج. . .

هلعت فاطمة:

- إلى أين ؟ أرجوكما . . . كانت مزحة فقط . . . قلتُ له إن كاميليا حساسة ورقيقة فقط . . .

هدّأت كاميليا من روع فاطمة:

- لا يهم ما قلتِه لقاسم . . . كانت هذه اللحظة ستأتي حتمًا . . .

وتلعثمت فاطمة وحاولت حجزنا بلا فائدة .

أجلسها ريتشارد على الكرسي وقال:

- دعيهما وشأنهما . . . الصراحة أجمل ما في الحب .

لطمت فاطمة وجهها بكلتا يديها :

- لكن لا أريدها أن تكون على يداي !

وأخذت تلطم وتندبُ بدمعٍ متناثر:

- يا خجلتك يا فاطمة! . . الله يخرب بيتك يا فاطمة! . . الله يكسر إيديك يا فاطمة! . .

لم يكن ريتشارد يفهم ما تنوح به فاطمة بالعربية . . . لكنه كان يدرك أنه نوح.

أخذت ندى تتبعنا، فتداركها أوزان قائلًا:

- اتركيهما . . . سيتحدثان ويعودان . . .

كنا نتهادى أنا وكامي . . . نسير في خضم لحظات حاسمة . . .

سرحتُ في عينيها قائلًا:

- هل هناك ما تودّين إخباري به يا كامي؟

زمت شفتيها ثم أجابت بهمس معترف:

- الكثير! والكثير! . . وأنت؟ هل لديك ما تخبرني به؟

- الكثير أيضاً . . .

- حسنًا . . . ابدأ أنت .

- بل أنتِ . . .

أخذت عيناها تجولان بين النجوم . . . ثم عادتا إليّ قائلتين:

- ما رأيك أن نفترق ؟

- فراق ؟ ! هكذا بكل بساطة ؟

- ربما يكون هذا أفضل . . . لا أريد أن أسمع ما لديك ثم أكرهك . . . أو تسمع ما لدي ثم تكرهني . . .

- الفراق في هذه اللحظة لن يولّد حقدًا كما هو الفراق دائمًا . . . الفراق هنا سيحافظ على مودّة بيننا . . .

كانت كلمات كاميليا كالسّهام تنغرز في قلبي، فتقطعه إربًا إربًا . . .

والحزن يخنق أعماقي . . . والصدمة تغتال أفكاري . . .

أجبت بلا تفكير:

- موافق!

عيناي وعينا كاميليا يتخاطبان . . . محمرّتان، منتفختان، تكادان تنفجران . . .

وقلبانا يقرعان جدار سجن القفص الصدري . . .

يتهافتان على بعضهما، يبغيان عناقًا أخيرًا . . .

لكن . . . ليس هناك عناق بعد اليوم!

٣- المقامةالسياسية

حدثني حاتم بن جرموز، عن مريضٍ عجوزٍ إزاء دائه العضال:

آه. . . آه. . . آه. . .

داءٌ عضالٌ فتّاك. . . استفحل ببدني وشاك. . . ونشر فيه أهوال الهلاك. . . حتى كاد يحلق عن كتفي الملاك. . .

طامّة كبرى. . . ورزيّة عظمى. . . نزلت بجسدي. . .

وا أُمّاه! . . . وا أبتاه! . . . أغيثوني. . . أنجدوني. . .

أبعاضي تتآكل. . . وأعضائي تتقاتل. . . وأحشائي على بعضها تتحامل. . .

أغدو في البيت وأروح. . .

أصرخ في الدار وأنوح. . .

وأستغيث وأبوح. . .

أقفز شاهرًا مثل الكنغر . . . ثم أجثم كثعبانٍ أَقْتَرَ . . . ولا من منجد ! . . .

يا ويلاه ! . . . وا رأسي ! واكبدي ! . . . وا نخاعي !

وا مُخَّ مخي ! وقلبَ قلبي !

أين المروءة ؟ . . . والإخوة ؟ . . . ونخوةُ من الفتوة ؟ !

ألا ترون هذا العجوز المُسجّى ؟ ! وتسمعون أنينه المُدوّى ؟ ! فتهبّوا كالقَسورِ المُفدّى !

حتى مرّ عابرُ سبيلٍ بعتبة الباب . . . جذبه استغاثةُ فردٍ من أهل البلاد . . .

فنادى بأعلى صوته في الجوار : جاركم في مرارةٍ وسُوَارِ !

ففزع الناسُ كلَهبِ الأوار . . .

وتجمهروا حولي وتكاثروا . . . واقتحموا منزلي أفواجًا من الجيران . . . بغية نقلي إلى البيمارستان . . .

وعلى أكتافهم ومناكبهم تحاملوني . . .

وبغطاءِ الإسعافِ زملوني . . .

استفقتُ وإذا قبالي الطبيب . . . ينضح علمًا بدماغه اللبيب . . . رزِينٌ كان لكتبه

حبيب . . .

هلعتُ وتشبثتُ بتلابيبِ صدريته البيضاء . . . واستغثتُ بصوتٍ دامع:

يا أسفهلارَ الطبِّ ! ومهمندارَ الحكمة !

يا نطاسيَّ العقل ! . . . يا داكتور !

يا من بدائي عليم، وبدوائي أعلم . . .

أشكو إليك داءً ليس كالأدواءِ . . . وبلاءً من شرور البلاءِ . . .

ابتسم الطبيب تواضعًا وقال:

يا ذا الحديثِ المُفلطح . . . والمديحِ المُنقّح . . . اهدأْ بالًا ، واركُن حالًا ، ودعني أُناورِ ،وأجُس وأَمس، وأقرَع وأَبرَع . . .

وراح الطبيب يصنع ما عَدَّد . . . وأهبط مخروطَ سماعته الطبية . . . وأصابعه تجري في فسيفساء بطني الخَرِبَة وسلاسله القارّية الوعرة . . . ثم لصدوعِ صدري وتشقّقاته السَّعْرَة . . .

وبعد هدوءٍ مريب . . . وسكونٍ مهيب . . . هلع الطبيب !

ولطم خدَّه الأيمن:

هذا داءٌ جللٌ خطير . . . يحصد القوامَ كالنارِ السعير !

هذا داءٌ إذا اغتنت بالكالسيوم العظامُ تتناهبها العضلات . . .

وإذا اغتنت بالكالسيوم العضلاتُ تتناهبها العظام . . .

هذا داءٌ لا تسمح فيه العظامُ للعضلات أن تملك كالسيومًا أكثر منها . . . ولا تسمح العضلات للعظام أن تملك كالسيومًا أكثر منها . . .

لا أدري إن كنتَ فهمت . . . فلربما لكِبَرِ سنّك خرفت . . .

لكن يا جدّي العجوز . . . هذا داءُ الاشتراكية اللعين، بعِلّته أجهزتُك التشريحية رهين !

جَعَّدتُ جبهتي باستنكار:

أيها الأستاذُ الطبيب . . .

قد أكون خرفتُ أو شِخت . . . لكن خذني بحِلمك، ودعني أطرح سؤالًا بملكك . . .

أليست مساواة الكالسيوم جيّدة ؟ فلا عضو يملك كالسيومًا أكثر من الآخر . . .

ضحك الطبيب ساخرًا ثم غدا وجهُه باهِتًا وهتف:

إن المساواة من الظلم !

فعندها لا تقوم العظامُ إلا بقومِ الأود . . .

ولا تقوم العضلاتُ إلا بقومِ الأود . . .

فإذا اقتضت الحاجةُ عضلاتٍ أقوى، لا تجد عضلاتٍ أقوى، لأن العظامَ أخذت كالسيومها . . .

وإذا غضبت الدرقيّة على العظام وقطعت الإمداد، فإن العظام لا تملك احتياطًا من الكالسيوم عِداد، لأن العضلاتِ صادرَته بقوة عاد . . .

هل فهمت الآن ؟

قلتُ وأنا أهز رأسي: أفترضُ ذلك . . . لكن ما علاجه ؟

زمَّ شفتَيه الطبيبُ، وشرد بالتفكير، وغاص . . . كأنّه عمرو بن العاص !

ثم تهلّل واستبشر، وتلألأ واستنار، وصدح:

هي حقنةٌ من دواءٍ ساري المفعول. . . لعلاج هذا الداء به معمول. . . هي حقنة من الرأسمالية!

فحقنني بها الطبيب. . . جرعةً كبيرةً غزيرة. . .

ورحتُ للبيتِ مسرورًا أعدو كالغزال. . . هانئَ البال. . . مفعمًا بالصحة. . . أو كذلك أُخَال. . .

لا آلامَ تُكويني، ولا أوجاعَ تُرديني. . . بالنشاط والحيوية مكتظٌّ.

ولمّا بلغتُ عتبة البيتِ. . . صُبّ الزيتُ على النارِ. . .

وبدأت أسقامي بالتصاعد. . . وصحّتي عني بالتباعد. . .

حتى بزغ سَحَرُ اليوم التالي، فإذا لحمي مُنْلَسِخٌ وبالٍ. . . وعظمي متكدّسٌ وثيق الوصال. . . والألمُ مني نال. . . قاسٍ شديدُ الوبال. . .

وبتّ أغدو في البيت وأروح. . .

أصرخ في الدار وأنوح. . .

وأستغيث وأبوح. . .

أين المروءة؟ . . . والإخوة؟ . . . ونخوةٌ من الفتوة؟ !

ألا ترون هذا العجوزَ المُسجّى ؟ ! وتسمعون أنينه المُدوّى ؟ ! فتهبّوا كالقَسورِ المُفدّى !

وعدتُ إلى العيادة، وقد تعاظمت أسقامي زيادة. . .

وتشبثتُ بتلابيب الطبيب وصرخت مستغيثًا مع النحيب:

أيها الأسفهلار المهمندار ! أيها الإسنفديار الأستدار !

يا كوزالجيّ على كل آخوند ! يا من على التومرجية إِسبهبد !

أستنجدك. . . أستغيث بك. . .

ودنا مني الطبيب ضاحكًا وهتف ساخرًا:

أيها الفهّامُ الأخبَل! . . ذو العقلِ الأنبلِ التنبَل . . . واللسانِ المعوّجِ الأجزل . . . هلاّ أفصحت الحديث وبيّنتَ المقال؟!

إنّ تأويلَ كلماتك محال . . . فهي نافرةٌ عن أيّ مجال!

. . . وراح يفحص ويمحّص . . .

ثم هتف:

العظامُ امتصّت كلّ الكالسيوم، ولم تُبقِ شيئًا للعضلات . . . فأصبحت غنيةً قويّةً . . . تُحمَل عليها الهملايا وزاغروس، ثم تزيدها زُحل وأورانوس . . . فتحملها ولا تكترث!

أمّا العضلاتُ فاضمحلّت . . . وعلى ضعفها أُسبطرت . . .

خائرةُ القوى . . . عسيرةُ الحال . . .

فلا تقوم لكَ بسفيف الأعمال، ولا بصغير الأشغال.

إنه داءُ الرأسمالية الذي حقنتُك إياه... والآن تحتاج لداء الاشتراكية ليُعالجه.

قفزتُ ودمعي يتناثر:

لا يا كوزال، أرجوك! ذلك داءٌ عاتٍ عنيف... انزِعْ لي دواءً غيره...

غضب الطبيب وصرخ:

أنت تحتاج مشفى الأمراض العقلية!

فأجبته:

أنت أدرى، جناب الحكيم باشي... إن أعصابي لاغبةٌ كالطواشي... ودماغي يتقفع ويتقوقع...

أرسلني إلى التيمارستان... لعلّ تُصيب احتمالاتُ الرهان...

ثم تفكر الطبيب وسرح بفكره البعيد . . . ثم عاد وهو يهتف مبتهجًا :

لنجرب حقنةً فيها قليلٌ من الرأسمالية، وقليلٌ من الاشتراكية، وقليلٌ من الفيداس

والآفستا مما يُلائم بدنك . . .

فحقنني بها . . .

فإذا بالأسقامِ تنجلي . . . والبسماتِ تعتلي . . . وحياتي بالمسرةِ تغتني .

وعشتُ تالي عهدي رشيقًا أنيقًا . . . ولساني قويمًا . . . يأتي بكلماتٍ مُفصحةٍ

وبائنة .

٤- المقامة القلبية

حدثني معمر بن نمير الغزالي، عن الدبلوماسي صاحب الشعر البرتقالي أنه حكى:[١]

كنتُ أعمل سفيرا . . . دبلوماسيًا . لصالح بلد لطالما كنتُ أحبه وأمقته .

ولطالما كانت مغادرته حلم يقظة بائس، والبقاء فيه رغبة خجولة متوارية خلف واقع يائس .

ومن ثم عشقت نصف عقل امرأة كان أجلّ أمانيي أن أعمد إلى روحها الملتئمة .

فأقطّع أوصالها الملتحمة .

بل ولا يزال !

برقت بذرتي من التراب الشرقي . سقتني هذه المياه الغربية . . . ثم رشّ علي أعدائي السماد لأنمو !

سمعت أذني اليمنى اسم محمد ، وأذني اليسرى اسم يسوع . . .

صليتُ في مسجد ، وأقمت قداسا في كنيسة . . .

[١] - المقصود بهذه المقامة هم مشايخ السلاطين.

هل أنا اثنان في واحد ؟ أم واحد في اثنين ؟

أيا يكن .

الكلمة الأولى من حكايتي تبدأ في السفارة . منبعُ كلّ قذارة .

دلفتُ إلى السفارة ذات يوم، وأنا أحملُ رسالة اللوم .

رسالة إعلان الحرب !

بلادي غضبت . وبالأحقاد استعرت . . . والرصاص حروف تسطرها لغة الحرب اللعينة .

كأي مواطن . حملتُ بندقيتي . وارتديتُ بزتي الخضراء . وتلقفتُ جعبتي . لأقاتل في سبيل ملّتي .

هتف القائد هلعا : أين تغربُ ؟ ! . يا صاحب الشعر البرتقالي !

لا تذهب إلى الحرب فتطحنك . فلا غنى لنا عنك .

اخلعني القائد خلعتي . وإلى الدبلوماسية أرشدني . . .

ارتديتُ الرداء الرسمي . وبالثقة ارتسمت . ولوحة السلام رسمت .

اجتمعتُ مع السفيرة . . . كانت فاتنة كالأميرة .

اسمها صفين . . . قلبها فائض بالحنين . ليس إلى خلّ أو نديم . بل إلى دمي ولحدي .

الذي لطالما أرقها انتظاره . وأسهدها ارتقابه .

- كيف حالك أيتها السيدة الحمقاء ؟

- يا هذا ، هلا تأدبت ! ، وبأخلاقك تلبست ؟

- كنت أظنني لمنع الحرب أتيت . فكيف بالغرام التقيت ؟

- هل هذا غزلٌ أم عذلٌ ؟

- لعلّ هذا من ذا ، وذا من ذا .

- يا سماحة السيد المهذب . . . صاحب الشعر البرتقالي المشذب . . أنشدك الله

أن توقف هذا الجنون ! . . . جنودنا بالقنابل يقتلون . . وقادتنا بالمجون يلتهون .

- وماذا عساي أصنعُ أيتها السفيرة الحمقاء . ألستم من حرضنا ؟ ! وإلى المواجهة دفعنا ؟

فانتصبت السفيرة مذعورة . ورفعت سبابتها مغرورة . وهتفت صاخبة:

- عن مملكة الرب . . . علينا الذب !

تبسمت ساخرا:

- هل هذا دعاية أم دعاء ؟ شعار أم عار ؟

حدجت عيناها فيّ بغضب، وجعّدت جبتها وصرخت:

- يا لك من كافر شقي ومنافق دعيّ !

- وبعد ؟ هل ستقطعين أبهري أم أجوفي ؟ السباتي أم الوداجي ؟ . . . هل الرب أمر الهلالَ أن يقضم أبعاضه ؟

- نحن نحارب المنافقين أعداء الدين . . حربا يشيب لها الغلامُ لئلا أمام ربنا نلامُ .

- في بيت المقدس . شيطانٌ سماويٌ بدين . هلّا هجمتِ عليه يا صفين ؟

تلكأت صفين . وكأن جملتي شلّت لغتها . . .

- أجيبي مالك تسكتين ؟ . . . هل أصابك شلل بيل اللعين ؟ !

- يا هذا لا تحرف كلامي، وتثقل في ملامي، فشيخنا أمرنا أن نحارب الكافر الأقرب فالأقرب .

- هل أصلي نحو معبد بوذا أم رسولي زردشت أم أحج عند بعل ؟ ! أليس رسولي محمدا، وأصلي نحو الكعبة، وأحفظ القرآن ؟

كيف بالكفر ترميني ؟ قريبا تنعيني . . . وعند الله، يوم الآزفة تلقيني .

- لا أفقه ما تقولُ، لكن قال شيخنا : ابدأ بمن تعول .

انفجرتُ ضاحكا، وتراقص نابي ساخرا، من فهم أعجمي سقيم، وشيخ نازي خصيم .

- يا هذا . هل تراك تسفه أحلامنا ؟ أم اعتراك شيءٌ من دائنا ؟

– كلّا يا ابنة الأكرمين . . إنّه شيءٌ من الوهم . . على العموم . هل تفكرتِ بعقلك المسموم؟ وقلبك المعدوم؟ قبل أن يقرع المحتوم!

– ماذا تعني؟ هلّا وضحت لي!

– لماذا تزقزقين بقال شيخي . . لم لا تقولين أنتِ؟ . هل فكرتِ يوما بصياغة مفردة أو تركيب جملة خاصة بك؟

ثم من شيخك هذا؟ . من أمه ومن أباهُ؟! . ومن قبله ومن أباه؟!

أين تعلمَ؟ وأين أطروحته؟ وأين رسائله؟ هل يملك مكتبة؟ هل يطالع الكتاب أم يكفيه التقاط صورة جنب غلافه ثم يشهرها؟

– مهلا! أيها الزنيم، شيخنا عالم قديم، وفهم متخصصٌ عليم، كفّ عن ابتذاله وإلا صببتُ على رأسك الحميم!

– سأقول كلمة أخيرة، علّها للحق منيرة . . هلا طالعتِ كتابي، وقرأتِ مقالاتي، وبحثت عن شيخك الفهام العليم، في القاموس والتاريخ . والصحف والمصاحف . لتجديه وبالنقد تصبغيه .

– حسنا ، سأفعل ما تقول، لكن إلى حين ذلك الاكتشاف العظيم، سنتقاتل حتى الثبور، في كل وادي وكل غور . في الصدور وفي النحور . في أصقاع البوادي وأعماق البحور . . . بالبرود وبالحرور !

– موافق، دعنا نتقاتل وهذا الميدان حكم لكل نزال، ولكل قارعة ولكل نجاز . . . لكن إذا سمعنا ضحك الشيطان، يجب ألا نخفر أو نثقل على كاهل الآخر الملام.

لم يجدِ النقاش مع دماغ أمرد . . . لا يوجد لخلاياه العصبية استطالات . فانقطع بينها الاتصالات . وغرقنا بعيدا في الويلات . بكل الولايات . .

طق طق طق . طرقتُ على وزيري الباب . أنا ذو العقل اللباب . رجعتُ وليس بيداي غير الذباب !

- السلام على قائدنا الأبي .

- وعلى صاحب الشعر البرتقالي السلام . . . هل نبأتنا بما جرى بين الأحلام ؟

- يا سيدي، إنّ القوم حماة الشيطان السماوي، ضربونا لأننا نضربه . وقاتلونا لأننا نقتله . وأتباعهم . يا ويلاه ! . أدمغتهم كالحديد . بالصلابة والإطراق !

يرددون هتافات لا يعون معناها . وأحاديث شريفة يجهلون مغزاها . يعبدون ليس الله . إنما شيخ نازي فاشي . إذا قال الله لا يستمعون . . . إذا قال رسول الله لا ينصتون . وإذا تكلم شيخهم هبوا إليه، وأهدوه حواسهم الخمسة !

أبدى سيدي امتعاضه . وتجهمت سبحاته . وقال يائسا بائسا :

- أرأيتَ يا صاحب الشعر البرتقالي ! . لقد نجح الشيطان بتفريقنا عن طريق أنفس ما عندنا وهو جوهر ديننا .

سخّر القرآن لحمايته، والأحاديث النبوية لتدافع عنه، ليس بمعناها إنما استخرج أناسا اشتغلوا بذلك، وابتكروا مذهبا دينيا يدافع عن الشيطان المقدسي الأزرق . لقد أنزلوا مبادئ تقيم الأخ مكان العدو والعدو مكان الأخ . وا سوأتاهُ !

– وماذا عسانا فاعلون يا سيدي ؟

– القتال . لا شيء سوى القتال . بانتظار المال !

الرصاص ينهمر كصبيب المطر . والانفجارات تتوالى وتتعاقب . والصواريخ تحلّق كأسراب من الطيور . . . وأنا ! . . . أكثر من يؤمن بالحكمة والعقل . . . لا أجد نفسي إلا مشاركا في هذا الجنون الكبير .

أحمل بندقيتي . خلف ساتر ترابي عال . يسندهُ بعض الخشب البالي . . . تتطاير النيران فوق خوذتي . والصواريخ تتساقط متناثرة . . . تروم قرعي .

وأنا بفالق الخندق أجري . . . أعدو وأعدو . والأمطار فيه تسري . . . ودمائي تسيل حتى نعلي .

في وسط صحراء واسعة المدى، ضربتها عاصفة الردى، تشكل الأرواح الأخوية وتتساقط سدى، إخوة لكن تقاذفتنا مصالحُ شتى .

أطلقُ الرصاص من بندقيتي، يغادرها بكل أسى، ليقتل أخا، كان عضدي لولا الشيطان الأزرقُ وعُقابه البازي الأخوق .

وبعد معركة دامية، وتبادل إطلاق نار كثيف، فرّ أعداؤنا وخلّوا أمامنا . . . دخلنا البلدة التي خسروها .

أخذنا نفتش البلدة، طبقا للأجندة.

معي جنديٌّ قديم، واسمه سليم، ومعي جاسوس خسيس من أهل القرية، يفضح لنا كل فرية.

يهرول أمامنا الجاسوس، يرشدنا على الأغوار والسراديب، والمخابئ والأنفاق .

إلى سرداب نائي أرشدنا، فخلعنا بابه وحطمنا، ودلفنا إليه ودخلنا، فإذا السفيرة صفين مختبئة .

حدجتُ بعيني وعقدتُ حاجباي:

- يا صفين سلامُ . الآن حان الوئام !

رمقتني صفين بفَرقٍ . واستغاثة

- يا صاحب الشعر البرتقالي الباسل . ألا تعفو عن زميل كان عن الحق غافلا ؟

- ألم ترددي شيخي وشيخي حتى أصابك عمى شيخي، ألم تقولي شيخي يحرضنا على قتال أعداء الله ؟ فأين هو الآن عندما أتوه أعداء الله ؟

- شيخي رجل دجالٌ كاذب، له من هذا مآرب، الفتنة وقتل العائلة بعضهم البعض، نادى أنا محارب، وحين الكريهة، ولّى فهو الهارب .

- أين ولا قبحه الله ؟

- ولى . . ولاذ بالفرار . إلى سيده . إلى شيطانه الأزرق عند الجبل . فأعطاه من الدراهم حفنة، ثم أمره أن يرقد برفقة كلب البيت .

– مهلا . رويدك . هل تقولين أن كل هذه الجنود التي فنت . والبيوت التي تداعت . والعائلات التي بُعثرت في الشتات . لقاء حفنة وضيعة من الدراهم ؟

– هذا ما حصل في الوجود . فاصنع ما قطعت لشرفك العسكري من الوعود .

أخرجنا صفين أسيرة، مكبّلة بالأغلال العسيرة، منهكة القوى عن شعرها حسيرة .

صرخت مذعورةً: أختكم في الدم والقبلة . . . ألا تستروها . وعن العيون تزملوها ؟ !

وبالطبع فعلنا ! .

صفين أحبك مليا ، يا مبغوضا أضحى عشقيّا ، يا ظهريّا أصبح قبليّا . . .

يا عدو الأمس . وحبيب اليوم .

– السلام على قائدنا الهمام، العالي المقام، يا من فهمه ليس كالأفهام، وهزيمته ضرب خزي من الأوهام .

- أهلا يا صاحب الشعر البرتقالي . قد أطلت المدح والثناء . فاسأل سؤلك . يأتيك بهذه الأثناء .

- يا سيدي ! ، إنّ صفين امرأة طيبة وغبية . وهي قريبة إلى الفؤاد دنية . وقد خدمتُ بين أيديكم أُتون سنين عتية . فهل الغفران لها يكون جزية ؟

أذكر وجه سيدي قليلا . ثم أجاب

- قد أثقلت في الطِلاب، بيد أنك مجاب دون عتاب .

تبسمتُ شاكرا وغادرتُ راضيا . . .

أخرجتُ صفين من الأسر . وطلبت يدها للزواج علنا ، ليس سر .

تزوجنا ونهضت عائلتنا الرغيدة . . . بعلاقتها الفريدة . بالحب والعطاء رفيدة .

وراحت صفين تدعو قومها للأخوة المجيدة . . .

اجتمع القومان المتحاربان . . وعلى الصلح تعاقدا . . وعلى الإخوة الجينية أكدا . . . وعلى حياة بلا "مشايخ" اصطلحا . .

وبعد اجتماعنا النضر . حضرت مآدب الطعام الشهي . وجلسنا لنأكل بجب وسكينة وإخوة والتحام .

وأثناء المأدبة . قفزت أصوات مستغيثة عجيبة . أصواتٌ مألوفة قرينة .

ضرب كبير القوم جبهته وصرخ مفجوعا

- إنهم أولادي المنسيون !

ثم التفت إلينا واستدرك

- أدركوا إخوانكم . فهم منذ دهرٍ يُقتلون . ويُذبَحون . وأنتم ! . إلا بهتت وجوهكم . هل صمّت أصوات المدافع آذانكم ؟ ! أم الاستماع للمشايخ أشغلكم ؟ ! ألا شاهت الوجوه ! . ألا شاهت الوجوه !

ثم صرخ قائدنا ملبيّا :

- لا نأكل حتى نأتي بإخواننا يأكلون معنا .

ثم تحامل القومان، واندفعوا ، وساروا بخطوات مزلزلة نحو الشيطان الأزرق .

ذعر الشيطان الأزرق . واصفرت ملامحه واكفهّر وجهه . ونادى: قد أتوا طُلاب الثأر . . . الوحى الوحى !

وفرّ الشيطان موليّا على ظهر عقابه البازي . ودخلنا الجبل والتقينا بإخواننا المضرجين بدمائهم . مسجين على الثرى . مقطعة أوصالهم .

وحملناهم على مناكبنا . . . ومنحناهم مهجة من مُهجنا . . وزودناهم أعضاء من أعضائنا . . . ثم سقيناهم دما من دمائنا . . . حتى دبّت فيهم الحياة، فمضوا يبذلون للكون بسمتهم النضرة المشعة بالحب والأمل .

أما الشيطان فحسب نفسه نجا . لكن عقابه البازي لما به خلا . ألقاه في الفلا .

وهتف:

- لتهلك . فلم يعد لي بك نفعٌ !

٥- نظرية التطـــــــور العربيــة

تقول نظرية التطور أن الإنسان تطور عن كائن آخر . . فعلى سبيل المثال قال أحد العلماء الجهابذة إن الإنسان العربي تطور عن حرباء . .

حدثني المناضلُ عثمان بن أبان عن رئيسه عبد الرحمن رئيس حزب الحرباء الرأسمالي الاشتراكي، واليساري اليميني، أنه حكى:

في بلدٍ من البلدان ، ومعمورة من العمران ، ولدتُ واسمي عبد الرحمن .

بلادي تكتسي بشتى الأزياءِ ، وتعجُ بألوان الرياءِ ، وتسطع ليلا نهارا بالأضواءِ . . لكل من اقتحم الأرجاءِ . . .

كنتُ وحدويا . . . وبحزب الحرباء الرأسمالي الاشتراكي حزبيا . . . نصف لساني يمينيا ونصفه الآخر يساريا . .

يتفجر صوتي بالأصقاع دويّا . . بالوحدة والالتئام . . والنضال العام . . . ضد الجرب والهام . . من آفات الغرب السام ! . . وداء الشرق الجام . .

باسم عبد الناصر أصبح . . وعلى بركته أمسي . . وبجوار طيفه أُنسي . .

وحدة العرب سبيلي . . . ولحمتنا مأمني ونصيري . . من كل غاز ومعتد . . . ليس لهذا من بديلِ !

لا تقل سوري . . . ولا تقل يمني . . . إنما هو عربي . . يا للإخاء والمحبة . .

والاستكانة والمودة !

وذات يوم طافر . . أمرني إله الوحدة الظافر . . . أعني مولاي الهمام الإمام . . جمال

عبد الناصر . . . بحزم المتاع . . وتنضيد الباع . . . والعزم إلى اليمن . . وامتطاء

الجُرد . . . لقتال المُرد !

وطئنا ديارنا اليمن المحبوبة . . لمحاربة أعداء العروبة . . . من الغوغاء المنكوبة . . .

بعهد من سيدي الأعجوبة !

وأمطرنا وابل النارِ . . . وصببنا حميم غضبنا السُعار . . . وثار فينا كل أوارِ . . .

وانتفضت بأبداننا كلّ الأشبارِ . .

وأنى تخمد لهيبنا . . مياه البحار أو غمر الآبارِ . . .

فإذا بنا نذبح العرب . . . في سبيل وحدة العرب .

ندمر بلاد العرب . . . كي نبني بلاد العرب . . .

نقطع الجذع . . كي نصون الأغصان . .

. . فكرة عجيبة . . . حفظتها فأنا لا أفهم على أية حال . . .

وبعد أفول الشمس . . وانقشاع ضباب النحسِ . . مات سيدنا الأعجوبة . . .

وبات بلا أي حراك أو حسِ !

تبسمتُ . . ضحكتُ . . قفزتُ وتمايلت وتراقصتُ . . . ورحت أدبكُ مع الشارع العربي . . .وأزغردُ مع النساء المغتبطات . . ثم أرقص مع حلقة الصبيانِ . . وأقفز محتفلا مع محفل الغلمانِ . .

زهوا سرورا بزوال الطاغية البالي . . . ذلك فرعون المنادى جمالِ .

وغيّر حزبي ألوانه . . وانزلق من ثيابه . . وتسجى بجديد الثياب . . . واكتسى بغير الإهابِ .

وحرر مُزجيا الترحيب بالزعيم الجديد :

يا أهلا بالقائد المفدى . . وقوة للأعداء مُعدى . . . ونداء للعروبة ملبى . .

أهلا بأستاذ الفقراء . . وصدر القُراء . .

أهلا بالرئيس الجديدِ . . .

وأهلا بمن سيقضي على الرئيس الجديدِ . . .

وسهلا لمن يقضي على من قضى على الرئيس الجديد . .

وطوبى لمن يقضي عليهم جميعا !

نحن لكم طواعية . . حتى تندبكم الناعية . . . أو تغلكم القاضية . .

ختم وتوقيع:

حزب الحرباء القومي الوطني الرأسمالي الاشتراكي اليساري اليميني

الفهرس

الإهـــداء ٢

١- مراء بغير بعد ٤

٢- لـحـظـة بـــوح ٤٨

٣- المقامة السياسية ٨٩

٤- المقامة القلبية ١٠١

٥- نظرية التطـــــــور العربيـة ١١٧

" البحر خطير وعواصفه رهيبة، لكن هذه العوائق لم تكن سبباً كافياً للبقاء على الشاطئ. "

- فرناندو ماجلان

" لم أكتب نصف ما رأيت "

- ماركو بولو